الباب السادس

فى العراق

« الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل
لعربي على عجمى إنما الفضل بالتقوى »
حديث شريف

وبعد فإنا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالإنسان ابن آبائه وأقربائه . وأرضه وسمائه وأشيائه: ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ، ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

إن هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها . . ! وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليلة التي تسمى بالدنيا . وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا .

ذر قرن الفتنة بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس عليًا . واندلع لهيب الحرب الأهلية بينه ومعه أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة ، وأظفر الله عليًا في واقعة الجمل فنازلت جيوشه في صفين جند الشام إذ رفض معاوية ومعه أهل الشام أن يبايعوه، حتى إذا افتر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف محكمًا كتاب الله ، وقبل على التحكيم فخذله الحكمان ، وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله : « لم حكمت فيما هو حق لك؟ » وهزمهم بالنهروان: وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة. وأخفقت المؤامرة في عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فرق أعناق الزعماء « الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر» ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطب . قال :

أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية .

ثم قال : فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد .

ثم قال : فمن أبى فهذا وأشار إلى السيف .

قال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف ، والسيف أصدق أنباء . ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح ، وبعثت الشيعة (أنصار على بن أبي طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع أهله ، فقتل هو ، وإخوته ، وأبناء عمه فى كربلاء .

وفى سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة تقاتل عبد الله بن الزبير . إذ بايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن ، أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك بن مروان . وولى عبد الله بن الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه مصعب بن الزبير ، ودعا المختار بن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ الحسين) فقتل . وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن يوسف الثقفى ، فما هو إلا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برءوسها ومالت إلى عبد الملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك !

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه العلماء ، ومنهم الشعبى فقيه الكوفة ، وسعيد بن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن ابن أبى ليلى . وتزاحف الجمعان فى دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عمن عفا عنه كالشعبى وأهدر دم من أهدر دمه كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما وسع من رقعة الإسلام فى أفريقية .

وفى سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفى سنة ٨٩ فتحت صقلية وفى سنة ٩٣ خفقت أعلام الإسلام على سواحل الأطلسى فى الأندلس ، ووقف موسى بن نصير فى ربوعها يفكر فى فتح أوربة . . فأشاروا عليه بالتلبث : فمكث يقول : أما والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية !

وفى الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفى ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن على بن الحسين فقتل . وفى سنة ١٢٥ خرج ولده يحيى بن زيد فقتل فى خراسان .

وفى سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة وثارت الثائرة بين بنى أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكد يهزم الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم فى خراسان ودخل مرو فى سنة ١٣٠ ونيسابور سنة ١٣١ . وجاء رسله إلى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس سنة ١٣٢ ، وكان التيار فى الكوفة يجرى نحو أولاد على بن أبى طالب فحوله أنصار العباسيين إلى بنى العباس . وهرب مروان إلى مصر حيث قتل .

وفى سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبى حنيفة بثمانى سنوات .

* * *

فى هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الإسلامى وبلدانه : أما المدينة فغنية بتاريخها عن التعريف ، وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ملتقى دجلة والفرات (سنة ١٤ — ١٧) لتكون معسكراً تلتجىء إليه الجيوش من برد الشتاء ، فبنى أبو موسى الأشعرى مسجدها من اللبن وسرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها الحضارة ، وفى سنة ٣٦ وقعت فى ضواحيها وقعة الجمل ، وفى سنة ٥٠ بلغ من نمائها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفى (سنة ١٧ — ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبى وقاص بعد موقعة القادسية أن يبنى الكوفة فأقيمت فى موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفترقها بين الشرق والغرب ، وبنى سعد مسجدها فى وسط المدينة وبنيت إلى جواره دار الإمارة . فلم يكد ينتصف القرن حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياماً وأكواخاً . وعمرها أقوام من كل جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكد تبنى حتى سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولاتها فى السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات .

كانوا أول أنصار على ولم تزل تتداولهم الهزاهز حتى أذاقهم الحجاج عذاب الهون نحواً من عشرين عاماً (سنة ٧٥ — ٩٥) ولم تذق الطمأنينة بعد ذلك . حتى إذا

ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهى قصبة الإقليم فى عهد بنى أمية ، وفى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلا من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشيعوا الحضارة الإسلامية العربية فى الإقليم . لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الإقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا عُرباً وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الإسلام .

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلى ! ! وشكت البصرة أبا موسى الأشعرى لأن له غلاماً ختاراً (غادراً) هو كاتبه زياد بن أبيه إذ كان له مائدة وبرذون . وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله .

ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم والياً .

وكأنما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محارباً فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة ابن شعبة . وطردوا سعيد بن العاص .

لما قدموا على عمر يشكون سعداً — قال : « من يعذرنى من أهل الكوفة — إن وليتهم التقى ضعفوه وإن وليتهم القوى فجروه » . قال رجل : « أنا أعذك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » ، قال : « من هو » قال : « عبد الله بن عمر » (ابنه) قال : « قاتلك الله : فمنذ اليوم لا أسميك إلا المنافق » ، وقال : « المغيرة يا أمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » — قال : صدقت فأنت القوى الفاجر . فاخرج إليهم » . وفى فتنة ابن الأشعث بذل رجال الشورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب إلى الخليفة : « والله إن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك . ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان

فلما سألهم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ إن الحديد بالحديد يفلح » .

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرنًا وربع قرن من الزمان ، واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصبًا وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة على فاتخذوا فى الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية . وما يزال لهم للآن عشرات من الملايين فى العالم الإسلامى. كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون إنه وصى النبى على المسلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم ، وغلا البعض فألهوه ، وانشعبت الشيعة شيعًا وأفراقاً حاربها بنو أمية حربًا ضروسًا ، فقتلوا أولاد على وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموى يقول : لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نسل علىّ !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفى عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة فى الانحسار . وشرعت الريح تجرى رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بنى العباس . فألف على بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبى ، وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشعبة الثانية خراسان . فلما دخلت جيوش أبى مسلم إقليم العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت مخبأ الثوار .

يوبع لأبى العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولوية المظفرة لقواده . فأخذ يعمل فى ظمأ لا يرتوى ليكون جديراً فى التاريخ باسمه (السفاح). وراحت سيوف العباسيين تحصد الرءوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بحار الدم شرعت تنبش القبور .

بدءوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، وانثنوا إلى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثلة. ثم وجدوا ضالتهم فى قبر ابنه هشام . فألفى السفاح جثته لم تبل بعد فضربها بالسياط . . وصلبها . . وحرقها . ثم ذراها فى الهواء .

وفى هذه المجزرة التى ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة إلى أفريقية فتى لم يكد يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ١٣٩ ليمكن فى اثنين وثلاثين عاماً لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ — على التعبير الحزبى — رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار ، والأجيال ، تلك المدنيّة التى ازدهرت فى فجر التاريخ فى أثينا وإسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعثت حركة الإحياء العلمى RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت فى طريقها — كالرسالات وكالبرد المائية والهوائية — بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها .

ولقد يخيل إلى الناظر أن هذه القلاقل كادت تزف دم الأمة ، لكنها فى الواقع كانت اهتزازات الجسم الذى يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحاناً لقوى أمة جمع فيها الدين الجديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما فى ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعاً لقوى الأمة ، واستعداداً لعهدها الجديد ، فلقد أدت الإمبراطورية السياسية التى وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هى حسبها ، وآن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجىء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التى ألفها كيان الأمة إلا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الإسلام نفسها فى الوجود ، بأسلوب جديد .

وإذا كانت دولة بنى أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالغزو ، فقد كان على الدولة الجديدة فى وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها فى مهاب الرياح الأربع .

* * *

فتعالوا إذن أيها المفكرون ، واحداً إثر واحد ، واسكبوا فى تيار الحضارة الذى لا يتوقف إلا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار . وليكن منكم الغواصون فى أعماق الحكمة والعلم . . . لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل ، فصلوا الماضى بالحاضر ، وقولوا كلمة الفكر ، إن كلمة الفكر هى العليا .

انطلقت العقول الإسلامية ظمآى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة ، فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية ، ولئن صح أن إسطفان وماريانوس وابن أبجر قد ذكروا العرب فى أواخر أيام بنى أمية بالعلم اليونانى حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن أبجر رئيسًا للمصلحة الطبية ، وأن خالد ابن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سالم أحد رجال هشام بن عبد الملك ، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم ، الذى بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم إلى العالم الجديد فى عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيبًا للمنصور ولبيمارستان جند يسابور . . ثم توالت الأسماء تترى : قسطا بن لوقا وسيد النقلة روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخداينامة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذرى ، ينقلون من الفارسية ، ومنكة وابن دهن الهنديان ينقلان من الهندية ، وابن وحشية ينقل من النبطية كتبًا فى الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل فى كل مكان ليجيئوه بالكتب ليعربوها ؛ وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع ، وانتقل الروح العلمى إلى وجوه الدولة وإذا ببيت كبيت بنى هاشم المنجم فى منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة ، يُدفع لهم شهريًا خمسمائة دينار للترجمة والتعريب ، كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسى (الكتب الفارسية) ، وابن ماسويه من جامعة جنديسابور للقسم اليونانى (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ولنشر ما تتضمنه المترجمات من علوم ، وأنفذ إلى بلاد الروم سلمًا صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهما ليبحثا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف إلى ثروة الأمة التى كان ينحصر تراثها العلمى — فى الجاهلية — فى علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب إلى فيثاغورس وإقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط

وأرسطو ، وإلى النظم السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الإسلامى فى حريته إلى أبعد الحدود حتى لترى بيتاً كبيت (أبى الجعد) فيه ستة إخوة . اثنان شيعيان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب ، عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة ، وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ويحيى بن عدى وإسطفان بن باسيلى ينقلون من السريانية إلى العربية . وعلى بن زياد اليمنى وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انتقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم ، ولم تبق الترجمة سبيلا للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فإذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخه هى (إقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين ديناراً يعيش منها طول العام .

ولم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجه (جورج أو جرجس) من جامعة جنديسابور وأبل على يده فأنزله وعلماء جنديسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمه للعقول .

فالفقه الإسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثراً للوثبة الإسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟

والجواب عن ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتاً أو تصويراً كما

صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفخرة الأمة الإسلامية التى يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعيًّا أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكرى الذى قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين ، وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التى عاصرت فى تحضيرها وظهورها حياة أبى حنيفة العلمية ، وهى قيام الدولة العباسية ، ثم انبعاث تلك الفكرة التى خلدت بها الحضارة العباسية نفسها بإنشاء المدينة التى لم ير مثلها الزمان إلى ذلك الزمان (بغداد) :

ليست مصادفة تلك التى جعلت بالعراق حلقة أبى حنيفة كالجامعة فى النصف الأول من القرن الثانى بالكوفة حيث كان محمد بن على بن عبدالله بن عباس وابنه إبراهيم الإمام من بعده يمهدان للدولة الجديدة فى الكوفة وفى خراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس :

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ، وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به فى المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتناهى الرشيد فى الإعجاب به فيكلل بالمجد هامات تلاميذه :

ليست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر بسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وإنها يد العناية تحرك الإنسانية نحو مصايرها المحتومة . تريد لرسالة الإسلام أن تصل بين عهدى الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثاً فى التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضى فى ظلام الليل المتكاثف ، فحملت الحضارة الإسلامية إلى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخفت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق فى الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية فى الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٥٣ . وإذا كان فتح المسلمين للقسطنطينية يؤرخ بدء عصر النهضة والإحياء RENAISSANCE

فى العصور الحديثة ، فأى مجد للإسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى وفتح حربى !

هذه النصرة التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس، لم تكن لها مشابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .

كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ، فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب أحد ، وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدى الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ، إن الفقـــه الإسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته وتميزاتها الاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، مافاق ألواح الرومان الاثنى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقى الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص الديباجة . تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هناك « آثاراً لا تنكر Indéniable » من تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الإسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، وإذا كان لأبى حنيفة بصر بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدرة من المحيط الجغرافى والاجتماعى الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر للمترجمين أو للمترجمات فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه فى حلقته وفى سائر الحلق بالمسجد الجامع إسلامياً صراحاً فى منابعه وسواقيه ، لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشىء أجنبى أو عالج أثراً أجنبياً .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان فى الشريعة . ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثر إلا بعد أن تقدم الخصوصيات المتشابهة التى يستند إليها الزاعمون فى الأصول والفروع ، وفى اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار « التى لا تنكر » : كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعاً ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة فى مظاهر التفكير ، ليقال من جرائها بتشابه الفقه فى الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشرى توافق العقل . وإذا تشابه العرف فى البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات .

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر فى عهد أبى جعفر أى بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبى حنيفة قد بلغت أوجها فى مسجد الكوفة ، وكان أستاذها فى أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاماً .

أما الشافعى فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر فى خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التى ادعاها المستشرقون : والذين تتبعوه فى دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة :

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة :

وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفى سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاى ما قرره مؤتمر واشنطن أخيراً فى سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان .

* * *

لم يكد المنصور يلى الخلافة حتى راح يحارب الشيعة حرباً ضروساً فى العراق وفى كل مكان ، كأنما كتب القلق على هذا الإقليم حتى ولو صارت إليه مقاليد الأمور . . وكأنما كتب عليه أن يثور حتى على ذاته !

ولكن ما لهذه الثورات تحمل الخير مع الشر !

وما لكفة الخير فيها ترى غالباً أرجح ! إنها قد تكون ثورة جهال فيظهر فيها العلم ، أوثورة على الحق فيخرج الحق منها أبلج وضاح الجبين كالشمس بعد السحاب !! ولقد تكون ثورة دهماء فتكشف عن انتصار المعانى الرفيعة فى الحرية أو فى الدين أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك . . !

إن الهدوء ليس الاطمئنان ، والسلام الدائم ليس سلامة دائماً . أو كما يقول الشاعر :

« وحسبك داء أن تصح وتسلما »

فلا عجب فيما يقول « هيجو » عن الثورة الفرنسية : « كان فيها من كل شيء ، من الكفر والإيمان ، ومن الجهالة والمعرفة ، ومن العدالة والظلم . ومن الفوضى والنظام ، ومن الطغيان والتسامح . ولا عجب أن تنجلى تلك المتناقضات عن تحرير أوربا ، فأنشأت الثورة إيطاليا وألمانيا ، وأطلقت الفكر الإنسانى من عقاله ، وجمعت بين الدين والتقدم . وأعلنت حقوق الإنسان ومكنت للتقدم الصناعى والاقتراع العام ومساواة المرأة بالرجل » .

فإذا رجعت إلى العراق رأت عيناك مصداق ذلك . بلداً يثور قرناً من الزمان ، على نفسه حيناً وعلى غيره دائماً ، دون أن ينضب معينه ، بل إن الثورة لتقويه ، وتزكى أنفس الناس فيه ، فى رقعة منبسطة من الخصب والحضارة وامتزاج العناصر . تبدأ من الجنوب الشرقى للصحراء السورية عند الحدود الفارسية إلى جبال حلوان ، من عبدان إلى الخليج الفارسى . فتشمل بلاد الأشوريين والبابليين وشبه الجزيرة مما يرويه دجلة والفرات ويتصل بسوريا وآسيا الصغرى وفارس والبحر ، حيث ترتبط فى نشاط تجارى بآسيا الوسطى وبالهند وشرق أفريقيا وشواطىء البحر الأحمر . يعمرها مع المسلمين فرس يدينون

بالزارادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزارادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات الإسكندر : وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جنديسابور فى كوزستان استمرت المدرسة ثلمثائة عام برغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا فى نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية . كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحى وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التى وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

فى هذه البقاع ترعرت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة : الزارادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون : واليهودية فى الشمال تسبق الزارادشتية بنحو تسعة قرون : ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام فى شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى : كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا فى تلك القرون العشرين :

وكان العراق محسوباً على فارس وموصولا بها على الوجه الذى بينا ، بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه ، فتجمعت فيه أخلاط من المدنيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب : وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر فى حدة وعرام لم يشهدهما بلد إسلامى ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن إلا أن تسكن النفس سكونها الأبدى :

وإذا عاشت الجماعة فى انفعال وانبعاث مستمرين برزت — كالفرد — ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل ما فى كيانها من قوة وفتوة :

ويمكن لتلك النزعات فى نفوس أهل العراق دين يحبب الجهاد فى سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائماً بشخصيته حتى إن عمر لما دون الدواوين كانت لغة ديوان العراق هى الفارسية إلى أن نقله الحجاج فى سنة ٧٨ إلى العربية ، ومع ذلك ظلت الحسبانات بالفارسية ، ويبقى أغلب كتاب خراسان مجوساً : أما فى خراسان — وكانت تحكم من العراق — فقد كان نصر بن سيار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية فى أواخر أيام بنى أمية . ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت فى علم الكلام وفى الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصرى ، وقد قيل إن الحكمة التى رزقها جاءته منذ كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبى فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبقى العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء ، حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بنى العباس ليباهى به عجائب الكنانة !

جلس فى تواضع العالم بين إخوانه العلماء — وكان يسميهم إخوته — إذ قدم إلى مصر فى أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر . فلو رأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فإن الله عز وجل قال : ﴿ودمَّرنا ما كان يصْنَع فِرعَوْن وقومُه وما كانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشىء دمره الله هذا بقيته ! !